لغة الجرائد

(تتمة ما في الاجزآء السابقة)

ولقد اطلنا في هذا الفصل الى حدٍ لم يكن في النية بلوغهُ ولعلهُ ادّى الى سأم بعض القرّآء وان آنسنا من جمهورهم تلقيهُ بالهشاشة والارتياح . على انهُ قد بقي من مثل ما اوردناهُ شيءٌ كثير حتى اننا لا نكاد نتصفح مقالةً من جريدةٍ او مجلة او فصلاً من كتابٍ عربيٍ او معرَّب الا نجد فيهِ مواضع حريةً بالتنبيه بحيث لو اردنا تتبُّع كل ما نراهُ مخالفاً للصحة لزم ان لا نختم هذه المقالة . ولذلك فانّا نأمل ان يكون ما ذكرناهُ في هذه النبذة كافياً لان يدعو اذكيآء كتابنا ومن يهمهُ منهم تصحيح لغتهِ وتنزيهها عن شوائب الاوهام ان يتنبهوا لتولي ذلك بانفسهم ومراجعة نصوص اللغة فيما يشتبه عليهم من الالفاظ فان ذلك اجدى عليهم واوسع فائدةً من تنبيههم على كلمةٍ كلمة وكثيراً ما تتفق لهم الفائدة يتناولونها عن غير قصدٍ فضلاً عما يرتسم في ملكاتهم من فصيح الاساليب التي تتكرر عليهم في تلك الاسفار . ولا يتوهمنَّ ان الوصول الى اصلاح تلك الهفوات يقضي عليهم باستيعاب موادّ اللغة حتى يكونوا جميعهم لغويين كما لا يلزمهم ان يدركوا الغاية منهُ في يومٍ واحد ولا في شهرٍ واحد ولكن لو استثبت احدهم صحة كلمةٍ واحدة في اليوم لم يأتِ عليهِ الا زمنٌ قليل حتى يخلص كلامهُ من اكثر تلك العيوب

وهنا نرفع كلمات شكرنا الى حضرات رصفآئنا الادبآء لما آنسنا فيهم من الاقبال على ما كتبناهُ في هذا الفصل والحرص على تتبعهِ والعمل بهِ وما قلدنا بهِ جميل رأيهم من احماد صنعنا وتقريظهِ مع تفضل بعضهم بنقل

تلك المآخذ على صفحات جرائدهم سعياً في زيادة انتشارها وتعميم نفعها . بيدأنَّا لا بدّ لنا ان نشير في هذا الموضع الى اناسٍ منهم لم نبرح الى يوم كتابة هذه السطور نرى تلك الاغلاط تتكرر في كلامهم فنجد في الفاظهم امثال العائلة . ولا يخفاك وصادق المجلس على كذا والقوم الأغراب وامعن النظر وأسدل الستار والاعيان المباعة والمداولات في القضايا ورضخ الى النصيحة والوحوش الكاسرة وامكن لي نوال الشيء وشاع الامر في النوادي الى غير ذلك مما سبق لنا التنبيه عليهِ وهذه كلها مما نقلناهُ من عددٍ واحد من احدى الجرائد . وما كان اصلاح هذه الكلمات بالامر البعيد على هذا الكاتب لو شآء الاصلاح اذ لم يكن عليهِ الا ان يعير انتباههُ لما مرّ بهِ من المآخذ المذكورة وهي لا تتعدى العشر الى الخمس عشرة كلمة في كل مرة ولكن الظاهر ان بعض كتّابنا يعز عليهم الاقلاع عما تعوّدوهُ من الركاكة والخطآء شأن البلاد في سائر ما ألفتهُ حتى في صناعتها وزراعتها وتربية ابنآئها ومعالجة ادوآئها وشديدٌ على الانسان ما لم يعوَّد . ولعلّ هناك مَن جذب بعنانهِ الكبر والدعوى فتمثل لهُ ان في التصحيح اعترافاً بالغلط فآثر ان يمضي على غلطهِ ايهاماً وتغريراً ومكابرةً في الحقائق مع ان كل من تصفح كلامنا في هذه المقالة يرى اننا قد تحامينا كل ما يبعث على الأَنَفة ويدعو الى الإِبآء لانا لم نومئ الى واحدةٍ من تلك الجرائد بعينها ولم نكد ننقل من احداها عبارةً بحرفها مخافة ان يُتنبَّه الى موضع النقل فيفوتنا ما قصدناهُ من اقبال الكتّاب على تصحيح كتاباتهم وما ننويهِ من صدق الخدمة واخلاص القصد في تقويم أَوَد اللغة وهو الغرض الذي طالما توخيناهُ وسعينا لهُ منذ

القينا العصا في هذه الديار وآنسنا فيها من حركة الاقلام وانتشار المطبوعات ما آذن بتجدد حياة اللغة ورأينا من تفشي التحريف واللحن والصيغ العامية والاعجمية ما خشينا معهُ ان يكون ذلك الانتعاش في اللغة مدرجةً الى تأصل الفساد فيها بما يتعذر اقتلاعهُ . وكان اول ما توجهنا لهُ أن عزمنا على استئناف طبع كتابنا في المترادف الذي سبق الالماع اليهِ في احد اجزاء الضيآء ووضعهِ بين ايدي الكتاب والدارسين ايثاراً لهم بما يتضمنهُ من وجوه التعبير الصحيح في اكثر ضروب المعاني المتداولة واحياءً لكثير من ميّت الفاظ اللغة وتراكيبها التي انقطع عهد الاقلام بها منذ قرون . فلما اخفق السعي فيهِ وجّهنا القصد صوب المجمع اللغويّ الذي كان قد شُرع في تأليفهِ في هذه العاصمة رجآء ان نستنهض الهمم الى استئناف العمل فيهِ وشرعنا في مقالتنا اللغة والعصر نبين فيها ما وسعهُ علمنا القاصر من طريقة العرب في وضع الفاظ اللغة واشتقاق بعضها من بعض تذرُّعاً بذلك الى وضع الفاظٍ للمعاني المستحدَثة مما كان غرض المجمع المشار اليهِ فكان كل ما سطَّرناهُ في هذا السبيل صرخةً في واد او نفخةً في رماد . ورأينا ان البحث الذي خضنا فيهِ هناك اذا لم يترتب عليهِ بحثٌ عمليٌّ مما تقدم الايمآء اليهِ اقتصرت فائدتهُ على بعض الخاصة والمتبحرين في اللغة وقليلٌ ما هم فاهملنا تتمة الكلام فيهِ وعدلنا الى انتقاد لغة الجرائد وبيان ما انتشر فيها من الاغلاط الشائعة مع الاشارة الى وجوه تصحيحها علماً بان هذا من اسهل سبل الاصلاح واقربها لأَنا لم ننحُ فيهِ منحى القواعد الكلية كما فعلنا في مبحث اللغة والعصر ولعلّ هذا وقد آنسنا فيهِ مخايل النجح يكون تمهيداً لما هو اهمّ منهُ مكاناً واعمّ

منفعةً ان شآء الله تعالى والامور مرهونةٌ باوقاتها

وقبل ان نمسح القلم من هذا الفصل لا بد لنا من ذكر امرٍ فاجأَتنا بهِ احدى المجلات الادبية بما لم نتوقعهُ ولعل ذكرهُ لا يخلو من فائدةٍ وتبصرة . وذلك ان بعض رصفآئنا الالبآء توهم اننا نريد من هذا البحث مناقشة اصحاب الجرائد فقام يردّ علينا ويتمحل الحجج والاعذار تصحيحاً لبعض ما نبهنا عليهِ من الاغلاط ـ ولعلهُ توخى منها ما كان قد اتفق لهُ السقوط فيهِ ـ فكدّ ذهنهُ واسهر جفنهُ في البحث وتقليب الصحف ثم جآءنا بامورٍ كانت ابلغ في الدلالة على ما اجتهد في التبرُّؤ منهُ وحاصلها تخريج بعض تلك الاوهام على بعض المذاهب الساقطة واحالة بعضها على بعض اللغات المتروكة وتوجيه بعضها على وجوهٍ من التأويل والمجاز مما نحن اعلم بهِ ومما هو بعيدٌ عن غرضنا بمراحل . وقد علم كل من اطلع على كلامنا من ذوي البصائر أنا اوردنا ما اوردناهُ من المآخذ بقصد التنبيه الى ما ينبغي اجتنابهُ فيما يُكتَب لا بقصد التخطئة لما قد كُتب ولو ذهبنا الى التخريج والاعتذار كما يريد هذا الاديب لما كتبنا في هذا المعنى حرفاً اذ قلما تجد تركيباً مخالفاً للصحة الا ولهُ وجهٌ يُردّ اليهِ ولو حملاً على بعض شواذ الكلام وحينئذٍ فعلى اللغة السلام . على ان التخريج انما يُنحى فيما يصدر عن قائلهِ سهواً او لضرورةٍ لا فيما يُرتكَب عن جهلٍ او في سعةٍ من اجتنابهِ ولا على ان يُجعَل قاعدةً يسوَّغ بها ركوب الشطط ثم تُتكلَّف لهُ الاعذار الباردة والحجج الواهنة وهذا القدر كافٍ في هذا المقام والسلام على من اتَّبع الهدى

القوى العاقلة في الحيوان

لحضرة الكاتب الفاضل خليل بك سعد

(تابع لما في الجزء السابق)

ومن قبيل التعاضد تكادُم الخيل وتلاحُس البقر المصابة بالاكلان او الحكَّة واشتراك القرود في نزع الحلميات من اجسامها واقتلاع الشوك من ارجلها . وذكر بَرَهْم انهُ عقيب مرور سرب من القرود في محل شائك يتمدد كل فردٍ منهُ على غصن ويأتي آخر فينزع الشوك منهُ . وبعض القرود اذا آنست غنيمةً تحت صخرٍ تحيط بهِ وتقلبهُ متعاضدةً وتشترك جميع افرادها بعدئذٍ في اقتسام ما تجدهُ من الحشرات . والجاموس الاميركي عند ما يشعر بالخطر يسوق اناثهُ وصغارهُ الى وسط القطيع وتدافع الذكور منهُ عن الجوانب . وروى ايضاً انهُ التقى في الحبشة بقطيع من القِرَدة فهرعت جميعها امام كلابهِ وتسورت اكمةً كانت امامها الا صغيراً منها كاد يذهب فريسةً للكلاب فاستنجد برفاقهِ فعادت شرذمةٌ منها فاغرةً افواهها وهاجمت الكلاب فدحرتها واستاقت مستغيثها الى الاكمة سالماً . فيرى مما تقدم انهُ لا ريب في تحابّ الحيوان وتعاضدهِ جرياً على مقتضى المرشد الادبي او الضمير . اما كونهُ يشترك في الاحزان فمسألة لم يقم عليها الى الآن دليل على انهُ قد رؤي ان البقر اذا مرت بميتٍ او محتضرٍ من نوعها وقفت من حولهِ تحملق اليهِ وتتأمل فيهِ ولكن ما من احدٍ يعلم ما يدور في خلدها اذ ذاك

والحيوانات تشفق بعضها على بعض مثل الانسان وكثيراً ما شوهد

بعض الغربان يطعم زاغاً اعمى ورأى بعضهم ابا حوصل على جزيرة ملح مقفرة وكان عاجزاً وسميناً مما يدل على انهُ كان عائشاً على الاحسان . بلى لا ينكر ان الحيوانات قد تطرد جرحاها من القطيع او توردها حتفها ولكن ذلك قد يكون تحوُّطاً كي لا تهتدي اليها الضواري فتطاردها وعلى فرض غير ذلك فعملها هذا ليس بافظع من المنكرات التي يقترفها هنود اميركا الشمالية الذين يتركون رفاقهم يهلكون في القفار او الفوجيون الذين يئدون والديهم اذا داهمهم المرض او ادركهم الهرم

وفضلاً عن المحبة والشفقة والميل الى التعاون والامانة الجلية الظهور في الكلاب فللحيوانات ادبياتٌ اخرى كثيرة ولبعضها مسيس بالضمير كأنفة بعض الكلاب من سرقة الطعام في غياب مواليها . ولما كانت الحيوانات في جهادٍ مستمرّ وحربٍ دائمة كانت الطاعة والامانة وبذل الرغائب الشخصية من لزوميات كل مجتمع منها للغلبة في الجهاد في سبيل الحياة او تنازع البقاء والا انتثر عقد شملها وآل تشتيتها الى الدمار . فالقرود في الحبشة عند ما تخرج للسطو على بستان تتبع قائدها بكل هدوّ وسكينة واذا زقا احد صغارها لطمهُ الذي بجانبهِ ليعلمهُ السكوت عند الحاجة ويدرّبهُ على الطاعة . والحيوانات كالانسان تكتسب ملكاتٍ او غرائز بالعادة المستمرّة او بالارث او بانضمام سلائق وقوى اخرى من مثل الاختبار والتعاطف والميل الى المهاجرة وغير ذلك . وقد تتضارب هذه الغرائز فيتغلب بعضها على البعض الآخر كتغلب الميل الى المهاجرة على المحبة الوالدية كما يشاهد في السنونو التي اذا حان اوان المهاجرة تركت فراخها في العش وهاجرت

فيتضح مما تقدم ان الحيوانات تشترك مع الانسان في الحاسة الادبية التي ينكر بعضهم كونها فطريةً فيهِ بدليل ان بعض المتوحشين في استراليا لا توبخهم ضمائرهم على القتل فاذا ماتت زوجة احدهم لا يهدأ لهُ بال حتى يقتل امرأة من قبيلةٍ اخرى فديةً عن نفسها وكذلك هنود اميركا يفضلون قتل الغريب على الزواج بابنةٍ من ذوي قرباهم ويمدحون السارق على فعلهِ . وامثال ذلك كثيرة مما يدل على ان الضمير خاضع لناموس النشوء والارتقاء بطريق الارث والكسب كما يشاهد في كثيرٍ من الأُسَر المتمدنة التي تتوارث الميل الى السرقة أو الكذب فيصير هذا الميل شعار غالب افرادها ولو كانت من ذوي الثروة والتأدب

وخلاصة ما يستنتج مما تقدم ان المبدأ العقلي عامٌّ في جميع انواع الحيوان وان العجماوات منهُ تشترك في كل ما يفتخر بهِ الانسان من الحواس والبدائه والقوى المختلفة كالمحبة والذاكرة والانتباه وعزة النفس والتقليد والشفقة والانعطاف والتعاضد اما بالسليقة او بطريقة الكسب فسبحان من اعطى كل شيء خلقهُ ثم هدى

عمدة الصفوة في حلّ القهوة

(تابع لما في الجزء السابق)

وفي سنة خمس واربعين بينما جماعةٌ في بيوت القهوة يستعملونها في شهر رمضان بعد العشآء وافاهم صاحب العَسَس اما من تلقاء نفسهِ او بامرٍ أُوحي اليهِ واخرجهم منها على هيئةٍ شنيعة بعضهم بالحديد وبعضهم مربوط

بالحبال فباتوا في منزل السوباشاه ثم أُطلقوا صباحاً بعد ان ضُرب كل واحدٍ منهم سبع عشرة ضربة ثم لم يلبثوا ان ظهر الحق وعاد الحال لما كان عليهِ اولاً بعد يومين او نحوهما

وورد في سنة الخمسين وتسعمائة في موسم الحاج صحبة الركب الشامي الى مكة حكمٌ سلطاني بمنع القهوة وابطالها والزام باعتها بمنع التسبب بها وابطال محالها وذكر ان السبب في ذلك شكوى امرأةٍ رومية كانت مجاورة بمكة قبل ذلك فأُشهر النداء بابطالها والتحذير من السلوك بهذه الطرق وامتُثل جميعهُ يوم النداء . ثم تعددت بيوتها على غير مبالاةٍ من الولاة وشُربت في تلك السنة جهاراً ودام استمرارها وكذلك مُنعت بالقاهرة مراراً فلم تطل المدّة وعلا منارها ولم يزل امرها ظاهراً وتعداد بيوتها وافياً مشتهراً ويشربها العلماء والصلحاء واماثل الفقهاء ويقرّ عليها اهل الافتاء والتدريس ويواظب على شربها من وُصف بالفضل وكل رئيس بالجامع الازهر والبقاع وفي سائر الايام والاوقات على الحالات الصالحة والاجتماعات للأذكار في الليالي وانتظام سلك البركات وطالما شربتها مع اجلاء اهل الحرمين في يوم عرفات المعظم واجتماع الموقف المكرم التماساً لاذهاب الكسل وقوّة النشاط والاعانة على الدعاء والوقف والرفع وغير ذلك مما يرتبط بصالح العمل . والذي اقولهُ ان الحق الذي لامرآء فيهِ ولا شبهة تعارضهُ وتنافيهِ انها في حدّ ذاتها حلال وبها نشاطٌ على العبادة لايشوبهُ نقصٌ ولا اختلال واما الامور المستجدّة من هيئة بيوت باعتها واجتماع اهل المحظور فيها مع ذويها وجماعتها واضافة ما لا يباح الى ذاتها بالاوصاف

التي اشتهرت بين البريّة فلا يبيحها من له ُ ادنى المام بمعرفة الاحكام الشرعية . والخمر فانما حُرّم بعد حل قطافهِ لاشتماله ِ بعد ذلك على قبيح الاوصاف التي يحدث منها ايقاع العداوة والبغض والصدّ عن ذكر الله والصلوة والتساهل فيها والاغضآء فقبح الاوصاف يحرّم ما كان مباحاً بلا خلاف

الباب الثاني

في سياق المحضر الذي كُتب في شأن القهوة بمكة وشرح المرسوم السلطاني الوارد جواباً عما نُعِتت بهِ من الصفة وذكر فتاوى العلمآء بالحِلّ والحرمة واقوال ذوي المعرفة

واما المحضر فنصّ المقصود منهُ هذه صورة واقعةٍ شرعية مضمونها ان مولانا المقام الشريف ابا النصر قانصوه الغوري لما اقامهُ الله خادماً للحرمين جعل الجناب العالي خاير بك المعمار ناظر الحسبة بمكة وباشاً على المماليك السلطانية فكان مما اتفق له ُ انه ُ في يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الاول سنة سبعة عشر وتسعمائة صلى العِشآء الآخرة بالمسجد الحرام مع الجماعة على عادتهِ ثم طاف بالكعبة ما بدا له ُ وابتدأ بتقبيل الحجر الاسود وختم بهِ والتزم بالملتزَم ودعا بما بدا له ُ ثم صلى خلف المقام ركعات الطواف ودعا بما بدا له ُ ثم شرب من مآء زمزم ودعا كذلك ثم توجه من المطاف الى بيتهِ فرأى في طريقهِ اناساً مجتمعين بالمسجد الحرام في ناحيةٍ قد جمعهم السيفيّ قرقماس الناصري بزعمهِ انه ُ قد عمل مولداً للنبي صلعم فقبل وصولهِ اليهم طفوا الفوانيس التي كانت موقودةً فارسل اليهم وكشف امرهم فوجد بينهم شيئاً يتعاطونه ُ على هيئة الشَرْب الذين يتعاطون المسكر ومعهم كأسٌ يديرونه ُ ويتداولونه ُ بينهم وقرقماس هو الساقي لهم بالقدح . فلما علم الامير

ذلك انكرهُ خصوصاً ووظيفتهُ الحسبة التي موضوعها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فسأل عن الشراب المذكور فقيل لهُ انهُ شرابٌ اتُّخذ في هذا الزمان وسُمّي القهوة ويُطبخ من قشر حبٍّ يأتي من اليمن يقال لهُ البن وقد فشا امرهُ بمكة وكثر وصار يباع في مكة على هيئة الخمارات ويجتمع عليهِ بعض الناس من رجالٍ ونسآء بدفٍّ ورباب وغير ذلك من الملاهي ويجتمع عليهِ في الاماكن التي يباع بها من يلعب بالشطرنج والمنقلة وغير ذلك مما هو ممنوع بالشريعة . فلما سمع الامير ذلك انكرهُ وتذكر قولهُ تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتآء ذي القربى وينهى عن الفحشآء والمنكر وقولهُ صلعم من رأى منكم منكراً فليغيرهُ بيدهِ فان لم يستطع فبلسانهِ فان لم يستطع فبقلبهِ فانكر على الجماعة المجتمعين وفرَّق شملهم ولما اصبح جمع قضاة الاسلام وعلمآء الانام ممن يُقتدى بقولهم من السادة الشافعية والمالكية والحنفية فحضر مولانا قاضي القضاة النجميّ المالكيّ وتعذر حضور قاضي القضاة نسيم الدين المرشديّ الحنفيّ لضعفٍ اوجب انقطاعهُ وحضر الشيخ شهاب الدين فاتح البيت الحرام والشيخ عفيف الدين عبد الله اليماني الحضرميّ الشافعيّ المعروف بأبي كثير والشيخ الامام عبد النبيّ المغربيّ المالكيّ وجماعاتٌ كثيرة واحضر القهوة في مركنٍ كبير والكاس معهُ وفاوضهم الامير خاير بك المشار اليهِ في امر القهوة واجتماع الناس عليها على هذه الهيئة المشروحة فاجابوا اجمعين بان اجتماع الناس عليها على هذه الهيئة حرامٌ اتفاقاً يجب انكارهُ على كل قادر عليهِ واما الحبّ المسمى بالبنّ المذكور فحكمهُ حكم النباتات والاصل فيهِ الاباحة لقولهِ تعالى خلق لكم ما في الارض جميعاً

فان كان يحصل من مطبوخ قشره ضررٌ في البدن او العقل او يحصل به نشأة او لذة او طرب فانهُ حرام ولو استعملهُ الانسان بمفرده داخل بيته والمرجع في ذلك الى الاطبآء . فاحضر الامير خاير بك الشيخين الامامين العلامتين الشيخ نور الدين احمد العجميّ الكازرونيّ واخاهُ علآء الدين علي وهما من اعيان الاطبآء في مكة وسألهما عن هذا البنّ المتخذ من قشره هذا الشراب فذكرا انهُ باردٌ يابس مفسد للبدن المعتدل فاعترضهما شخصٌ من الحاضرين ممن ليس لهُ المامٌ بالطب وقال ان البن مذكور في منهاج البيان وانهُ محرقٌ للبلغم فقال الطبيبان ان البن المذكور في المنهاج ليس هو هذا فان هذا جزءٌ مفردٌ بسيط وذاك مركب من ابازير وهذا ولو كان مباحاً فقد جرّ الى معصية وكل طاعة جرّت الى معصية سقطت فاذا دار الامر بين المحرّم والمبيح قُدّم المحرّم واباما شهادتهما بصيغة اشهد المعتبرة لدى مولانا شيخ الاسلام الصلاحيّ الشافعيّ ومولانا شيخ الاسلام النجميّ المالكيّ . ثم ذكر جماعةٌ من الحاضرين بالمجلس ان القهوة المذكورة ذُكر لهم انها حلال فاستعملوها بنآء على الاباحة الاصلية فتغيرت حواسهم وعقلهم فحصل لذلك ضرر في ابدانهم واقاموا شهاداتهم بذلك عند من أُشير عليهم بحضرة الجماعة الحاضرين . ثم رُوجع ذلك في دار قاضي القضاة نسيم الدين الحنفي لتعذر حضوره فقال انهُ اقيم عندهُ البينة بمثل ذلك وحصل منهُ التصريح بحرمتها ثم صرّح شيخ الاسلام النجميّ المالكيّ والجماعة الحاضرون بحرمتها وحصل اجتماعهم على ذلك . ولما تم الامر وتحققهُ الامير خاير بك المحتسب اشهر النداء بمكة ونواحيها وطرقها بمنع القهوة المذكورة ومن يتعاطاها

وانفصل الامر على ذلك وجُعل كلهُ في الصحائف ضحوة يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر ربيع الاول سنة سبعة عشر وتسعمائة

(ستأتي البقية)

العاج

لا يخفى ان العاج من اثمن المواد المستعملة في الصناعة وهو قديم الاستعمال من عهدٍ بعيد وكان الاولون ينحتون منهُ تماثيل آلهتهم ويتخذون منهُ ضروباً من الحلي كالخواتم والدمالج مما لا يزال يُرَى الى يومنا هذا عند سكان الشواطئ الشرقية من افريقيا . وقد وُجد منهُ في مدافن المصريين والهنود أدوات محكمة الصنعة من اقدم عهد وكان الاسرائيليون يزينون بهِ اثاثهم وابنيتهم كما ورد ذكر ذلك غير مرةٍ في التوراة ولا يزال استعمالهُ جارياً الى اليوم في المصنوعات النفيسة في اكثر انحاء الارض

والعاج يُتّخَذ من انياب الفِيَلة وافضلهُ العاج الافريقي وهو اصلب اصنافهِ واوزنها وانعمها مكسراً الا ان العاج السيامي يمتاز عليهِ وعلى سائر اصناف العاج بانهُ لا يصفرّ على تقادم العهد واما العاج الهندي فافضلهُ السيلاني ولونهُ ابيض الى الحمرة وهو ألين من العاج الافريقي . ثم ان العاج انواع منها الابيض وهو اشهرهُ واعرفهُ ومنها الاخضر وهو يؤخذ من بعض الانياب الحديثة اذا نُشرت طولاً فانهُ يوجد فيها اجزاءٌ شفافة تضرب الى اللون الزيتوني ولذلك تسمى بالعاج الاخضر وهو يؤثر كثيراً في عمل المصنوعات الدقيقة لما فيهِ من اللين وسهولة النحت والحفر وهو يبقى كذلك

الى حين ثم يتصلب ويتغير لونهُ فيصير ناصع البياض ولا يصفرّ بملامسة الهوآء . ومنها العاج الازرق وهو المتخذ من الانيـاب المتحجرة ويكون على الغالب من انياب الماموث واكثر ما يوجد في اراضي الروسية وما فيهِ من الزرقة مكتسبٌ من بعض الاملاح المعدنية في جوف الارض

واعظم الانياب حجماً ناب الفيل الافريقي ولذلك يؤثر على غيرهِ في الصناعة وثقلهُ يبلغ احياناً من ٨٠ الى ١٠٠ كيلغرام الا ان هذا الصنف من الفِيلَة آخذ في الاضمحلال لان ما يُقتَل منهُ في السنة يبلغ نحوًا من خمسين الف فيل بحيث يقدَّر انهُ لا يمرّ زمنٌ طويل حتى ينقرض من اصلهِ . ويقدَّر ان ما يُجلَب الى اوربا من العاج يبلغ ٢٥٠٠ وسق في السنة تبـاع في اسواق لندرا وليفرپول وانفرس ويباع مثل هذا المقدار في آسيا والناب الذي تبلغ زنتهُ ٥٠ كيلغراماً يساوي من ١٥٠٠ الى ١٨٠٠ فرنك

وخلا العاج الطبيعي فانهم قد توصلوا الى تركيب عاجٍ صناعيّ منهُ حيوانيٌّ يتخذ من طواحن الفيل واسنان فرس البحر ومنهُ نباتيٌّ يتخذ من لباب ثمرٍ يشبه الجوز يكون في اراضي الپيرو من اميركا الشمالية يقال لهُ جوز النخيل او جوز الـكوكو وهو سهل النحت قابلٌ لضروب التلوين تُصنع منه ادواتٌ شتى لطيفة ومنظرهُ لا يُفرَق عن منظر العـاج الطبيعي ولذلك فقد يبـاع بمثل ثمنه . وقد اكتشف بعضهم طريقةً للتمييز بينهُ وبين الطبيعي وهي ان تُغمس القطعة التي يراد اختبارها في الحامض الـكبريتيك المركَّز او يوضع عليها قطرةٌ منهُ ثم يُنظر بعد دقائق قليلة فان لم يتغير لونها فهي عاجٌ طبيعي وان تلون موضع الحـامض بحمرة خفيفة فهي

من النباتي وهذه الحمرة تذهب بالغسل بالمآء

اما صفرة العاج التي تعرض لهُ من طول مباشرة الهوآء فيمكن اذهابها بان يُفرَك بمسحوق مكلَّس الخفّان مع المآء ثم يُجعل وهو رطبٌ تحت قابلة من الزجاج ويعرَّض لاشعّة الشمس . واذا أُريد بقآء العاج على بياضهِ يوضع في وعآءٍ من الزجاج محكم السدّ بحيث لا يدخلهُ الهوآء فانهُ يبقى كذلك على لونهِ الى ما شآء الله

التبغ والمكروب

الظاهر انهُ لاشيء في عالم الحسّ مما يؤثر في المشاعر والامزجة ويترتب عليهِ لذةٌ او ألم او صحةٌ اومرض الا وفيهِ يدٌ لهذه المخلوقات الخفيةِ المعروفة بالمكروب . فقد جآء في احدى المجلات العلمية الانكليزية ان هذه الجُسيمات هي العلة في جودة طعم التبغ وطيب رائحتهِ وهي انما تتولد فيهِ عند الاختمار الذي هو اهمّ شيءٍ في معالجة التبغ وبدونهِ لا يجود ولا يحسن طعمهُ وريحهُ ولو كان من افضل اصنافهِ . وذلك انهُ عند ما ينضج ورق هذا النبات يُجنى ويُسطَح الى ان يذبل ثم يُجمَع حزَماً وينضَّد بعضهُ فوق بعض حتى يعرق وبعد ذلك يجفَّف ثم يُنضَح بالمآء ويعرَّض للاختمار وحينئذٍ تكون تلك الحزم محلاًّ لتولد ربواتٍ لا تُحصى من المكروب

والذي اكتشف هذا السرّ فيهِ رجلٌ من علماء الالمان يقال لهُ سَكْسلنْد ولتحقيق اكتشافهِ عمد الى بعض حزَمٍ مختمرة من اجود التبغ الاميركاني المشهور بطيب طعمهِ ورائحتهِ فعزل بعض ما فيها من المكروب

واستنبتهُ ثم ادخلهُ بعينهِ في بعض الاصناف الدنيئة من التبغ الالماني فلم يلبث ذلك التبغ بعد انتشار المكروب فيهِ ان اكتسب الخواص المعروفة في التبغ الاميركاني المذكور حتى لم يعد ممكناً لأشد الناس خبرةً باصناف التبغ ان يميزهُ من التبغ الاميركاني ولا يجد فيهِ شيئاً من مشابه التبغ الالماني. فان صحّ هذا كان فيهِ اعظم منفعةٍ ويسرٍ للمدخنين وكان ضربةً فادحة على محتكري التبغ الجيّد ولم يبقَ للحكومات الا ان تستعيض عما يفوتها منهُ بوضع ضريبةٍ على المكروب ...

بقي النظر في هل هذا الصنف من المكروب خاصٌّ بأُلفة اوراق التبغ ام ينمو على غيرهِ من سائر اصناف النبات وهذا مما لم يختبروهُ بعد ويقال انهم سيمتحنونهُ في ورق الكرنب فان وفقوا الى النجاح كان لهذا العلم شأنٌ جديد في الزراعة . وقد انشأت حكومة فلوريدا بمساعدة بعض اهل الخبرة من جالية كوبا معملاً لامتحان مكروب التبغ ولا يبعد ان يأتي يومٌ يُتمكن فيهِ من الاستيلآء على هذا الصنف من المكروب واستنباتهِ كما يفعَل ليومنا هذا في استنبات المكروبات التي تتأتى عنها لذة الزبد والجبن

فوائد

طرد الذباب ـ جآء في احدى مجلّات البيطرة ان افضل ما يُطرَد بهِ الذباب عن الدوابّ ان يذاب شحم الخنزير ويُغلى فيهِ شيءٌ من ورق الغار مدة خمس دقائق ثم يؤخذ منهُ بقطعة جوخ ويُدهن جسم الحيوان قبل ان يؤخذ للعمل دهناً مشايعاً للشعر فلا يقربهُ الذباب . قالت وقد امتحن

ذلك الجزّارون في استراسبور بأن طلوا بهِ جدران حوانيتهم فلم يقربها الذباب فيما يقال على الاطلاق

اما لمنع وقوع الذباب على الاثاث الخشبي والمعدني فذكر بعضهم ان افضل ما يستعمل لذلك الدهن بزيت اللاونضة او زيت الغار

تطرئة الجوز — اذا اشتهيت الجوز الطريء في اي وقتٍ اردت من السنة نخذ ما شئت منهُ بقشرهِ واغمسهُ في مآءٍ مملوح ملحاً خفيفاً مدة خمسة اوستة ايام فان الملح فضلاً عن انهُ يمنع المآء من الفساد يزيل ما في الجوز من طعم العفوصة وفي هذه المدة ينفذ المـآء شيئاً فشيئاً الى داخل القشرة حتى يبلغ اللباب فيتنفش بهِ ويكتسب طرآءةً . وعند كسر الجوزة تنزع القشرة الرقيقة عن اللباب كما يُفعَل بالجوز الطريء او الاخضر ولهذه القشرة كما هو معلوم طعم مرارةٍ فبنزعها يخلص طعم اللباب ويكون لذيذاً في الغاية

مرمّة الادوات المصنوعة من المطّاط — تُجمَع الاطراف المراد وصلها من هذه الادوات وتُطلى عدة طبقات من المركب الآتي

كبريتور السكربون	١٦
طَبَرْخَى (غوتابرخا)	٢
مطاط	٤
غرآء السمك	١

وبعد مدّ الطبقة الاخيرة يُقارَب الطرفان المراد التحامهما ويُضبطان وهما متلاصقان بان يُعصبا بخيطٍ ونحوهِ وتُترَك الاداة مدة يوم او اثنين ثم يُحَلّ العصاب وان وُجد شيء من اللحام زائداً عن اللزوم يُقشَر بسكين حتى تعود الاداة الى منظرها الاصلي

آثار ادبيّة

ارجوزة الحِكَم ـ أُهديت لنا نسخةٌ من ارجوزةٍ طويلة تحت هذا العنوان من نظم حضرة الشاعر الاديب الرياضيّ المشهور المعلم اسعد الشدودي جمع فيها امثال سليمان الحكيم فيما ينيف على الف ومئة بيت من الرجز وطبعها محلاةً بالشكل الكامل . وذكر في خطبتها انهُ نظمها باشارة بعض الاصدقاء بقصد ان تُرفع الى جلالة امبراطور المانيا عند زيارتهِ لبيروت في اواخر سنة ١٨٩٨ فشرع في نظمها منذ اوائل السنة المذكورة ولما أتمها عرضها على اصحابهِ الشعراء كما كان يفعل زُهير بن ابي سلمى في حوليّاتهِ المشهورة ولما اطبقوا على استحسانها نسخها بخطّ يدهِ ورفعها الى جلالة الامبراطور فأجازهُ عليها بان أمر لهُ بطبعها على نفقة الجيب الامبراطوري ...

فنحن نشكر الناظم على ما اطرف بهِ الادباء من هذه التحفة السنية ونحث ارباب المدارس على مقتناها وتلقينها للتلامذة تثقيفاً لهم بما تتضمنهُ من الفوائد الادبية واللسانية

احاديث بسمرك - هو عنوان كتابٍ وضعهُ احد نوابغ الكتّاب الالمانيين ممن لازموا البرنس بسمرك عدة سنوات قبل حرب السبعين وفي مدة هذه الحرب وبعدها وقد اودعهُ كل ما دار بينهما من الاحاديث والفكاهات وما سمعهُ من البرنس من الخواطر والآراء السياسية وغيرها فجاءَ كتاباً لطيف المباحث غزير الفوائد مشتملاً على كثيرٍ من المطالب التاريخية والسياسية حريًّا بان يطالعهُ الادباء والكتّاب من جميع الطبقات. وقد عرّبهُ حضرة الاديب الكاتب اللوذعي يوسف افندي البستاني منشئ جريدة المحروسة الغرّاء وزاد عليهِ بعض مقابلات بين داهية المانيا واعاظم القرن التاسع عشر فجاء كتاباً كبير الحجم يبلغ نحواً من ٣٠٠ صفحة. وقد شرع في تمثيلهِ بالطبع وتسهيلاً لمقتناه عرّضهُ للاشتراك وجعل قيمة النسخة منهُ اثني عشر غرشاً اميريًّا. فنثني على حضرة المعرّب ثناءً طيباً لما اتحف بهِ المكاتب العربية من هذا المؤلف النفيس ونحث الادباء ومحبي المطالعة على الاشتراك فيهِ واغتنام ما يشتمل عليهِ من الفكاهة والتبصرة

ترجمة المرحوم الشيخ حسن الطويل

تلقينا الترجمة الآتية لفقيد العلم والوطن المرحوم المشار اليهِ من لدن حضرة العلامة المحقق السيّد ميرزا ابي الفضل الايراني نزيل القاهرة فاثبتناها بنصّها الفائق　قال اعزّهُ الله

وُلد الشيخ المرحوم سنة ست وخمسين بعد المائتين والالف من الهجرة

النبوية في منية شهالة من قرى المنوفية فلما ترعرع شرع في القرآءة وحفظ القرآن وهو ابن ثماني سنوات ودخل الازهر سنة ١٢٦٩ وكان نشيطاً مجتهداً في التعلّم والاخذ فتقدم على اقرانه في اقرب وقت . وقرأ الاشموني والسعد على الشيخ احمد شرف الدين المرصفي وغيرهِ من اساتذة الازهر وعلى شيخ الحضاوي في طنطا واتقن فن تجويد القرآن ايضاً فيها . واخذ المعقول عن الشيخ السقاء والشيخ الانبابي رحمهما الله واهل مصر يعبرون عن المنطق والتوحيد والكلام وما يقارب هذه المعارف بعلم المعقول . الا ان الشيخ الطويل رحمهُ الله كان بطبيعتهِ ميالاً الى الفلسفة العقلية فاخذ في مطالعة كتبها وخصوصاً مصنفات الاقدمين كالفارابي وابن سينا وابي علي بن مسكويه وقرأ من كتب المتأخرين مصنفات ابن رشد وامثالهِ فاكمل الفلسفة بالمطالعة ومراجعة الكتب اكثر مما قرأهُ واخذهُ عن الاساتذة بالدرس . وقرأ الفقه والاصول على الشيخ الاكبر الشيخ عليش الشهير رحمهُ الله تعالى . ودخل في الجهادية ايام سعيد باشا خديو مصر فصار عسكرياً بعد ما كان لائقاً للتدريس في الازهر وكان في ايام خدمتهِ في العسكرية متلهفاً على ايام التحصيل والتكميل مظهراً مزيد اشتياقهِ الى الرجوع الى الدرس والبحث مواظباً على الصلوات والاذكار المفروضة والمندوبة حتى في اوقات الخدمات المخصوصة التي لا يجوز للعسكري بمقتضى القانون ان يشتغل بغيرها حتى عدُّوها عليهِ من قبيل المخالفة والخروج عن الطاعة خصوصاً حينما رأوا عندهُ خطًّا من استاذهِ يأمرهُ فيهِ بالمواظبة على قرآءة آية من آيات القرآن الكريم ليفرّج الله عنهُ ويوفقهُ للرجوع الى تحصيل المعارف والعلوم

فاتهموهُ بالسحر وامر ناظر الحربية بحبسهِ فحُبس في سجن الاسكندرية مقدار شهر او شهرين ثم ارسلوهُ ماشياً الى اسيوط . وبالجملة فانهُ بعد ما تكبَّد مشقاتٍ في الجهادية وقضى ما عليهِ من الخدمة في العسكرية عاد الى الاشتغال بالمعارف وشرع في التدريس واجتمع لديهِ نبهآء طلبة العلم فأفادهم افادةً مشكورة في العلوم الدينية ومهّد لهم الدخول في الفلسفة العقلية . ومما لا يشك فيهِ ان الشيخ رحمهُ الله هو اوّل من وضع اساس الفلسفة في مصر بعد ما درست معالمها واطفئ نبراسها وقلّت طلابها من زمان بعيد اي من ايام انقضآء الخلافة الفاطمية وتبديل دار الحكمة بامر الملك الكبير صلاح الدين الايوبي بالمدرسة الشافعية فجدّد الشيخ ذكرها حتى رغب الطلبة في تلقيها واهتم اهل الاستعداد منهم بتكميلها وازدادت الاشواق كل يوم الى تحصيلها . فلما جآء السيد الشهير جمال الدين الافغاني وجد طرقاً ممهّدة ونفوساً مستعدّة وقلوباً تائقة وآذاناً صاغية فظنّ ان هذه الاشواق عامّة في قطر مصر فأطلق العنان وتهور في البيان وافرط في الكلام وحدث ما ذكرُهُ باقٍ في دفاتر الايام واخيراً اعترف جمال الدين انهُ لم يجد في المصريين اهل استعدادٍ لتلقي العلوم الفلسفية الاّ تلامذة الشيخ حسن الطويل رحمهُ الله

وكان الشيخ المرحوم مشتغلاً بالتدريس حتى حدثت حادثة العرابي فلما اطفئت هذه الجمرة اتهموا الشيخ بان لهُ يداً في هذه الحادثة فترك التدريس وانزوى الى العبادات التي كان مغرماً بها مدة سبع سنوات . فلما انقضت المدة طلبت نظارة المعارف من الشيخ ان يستأنف التدريس فعاد الى الاشتغال بهِ في

مدرسة دار العلوم وقام بهِ احسن قيام وادّى مهمتهُ هذه اكمل تأدية حتى لهجت بذكرهِ الالسنة وترطبت بمدحهِ الافواه وقد نبغ عندهُ كثيرٌ من تلامذتهِ وتقدموا بسببهِ في فنون المعارف مثل حضرة الاستاذ الشيخ عليّ البولاقي وحضرة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي البلاد المصرية وحضرة الشيخ راضي الملقب بالكبير وحضرة الشيخ راضي الملقب بالصغير وحضرات الشيخ احمد ابي حظوة والشيخ محمد بخيت وغيرهم من اساطين العلم وكبار اهل الفضل

ولم يُعرَف لهُ رحمهُ الله مصنفات وكان قد شرع ايام تدريسهِ في دار العلوم في تصنيف كتابٍ سمّاهُ « عنوان البيان » فلما كتب جملةً منهُ وقدمهُ الى المرحوم علي باشا مبارك رجل العلم والفضل وموئل ارباب الجدّ والجهد طلب منهُ ان يغير اسلوب التصنيف على وجهٍ رسمهُ لهُ فجاراهُ الشيخ المرحوم في التصنيف وطبع من مصنفهِ هذا بعض كراريس فلما تغيرت اوضاع نظارة المعارف ترك التصنيف والتأليف واكتفى بالتهذيب والتدريس

اما صفاتهُ رحمهُ الله فكان آيةً في حسن الاخلاق ونزاهة الاعمال خافض الجناح على رفعة مقامهِ سهل العريكة على صعوبة مرامهِ وقد عرفناهُ منذ القينا العصا في هذه الديار فالفيناهُ ركناً وثيقاً من اركان العلم والفضل وطوداً باذخاً من اطواد الحكمة والفقه ونوراً مبيناً من انوار الانقطاع والزهد فسررنا بمقابلتهِ واغتنمنا فرص مجالستهِ فما انقضت مدّة من ملاقاتهِ حتى فاجأَتهُ المنون ونعاهُ لنا الناعون وفرّق الدهر بيننا وبينهُ الى يوم يبعثون فبكاهُ اهل العلم والفضل وابّنهُ ارباب النظم والنثر

ورأينا من حقهِ علينا ان ندرج في صفحات الضيآء الغرآء طرفاً من تاريخ حيوتهِ وما دار عليهِ من يوم ولاتهِ الى يوم وفاتهِ خصوصاً وان الضيآء التي عبقت بانفاسها الاقطار واستضآء بنبراسها الاخيار مجلة علمية خُصّت لنشر آثار فرسان مضمار العلم وتخليد اذكار ارباب الفضل لتكون قدوةً حسنة للمجتهدين ونوراً هادياً للطالبين

وكان رحمهُ الله لطيف المحاضرة حلو المفاكهة حسن البيان طلق اللسان واسع العلم بتفاسير القرآن قلما يتكلم في مسألة عقلية الاّ ويستشهد فيها بآية قرآنية او حديثٍ من الاحاديث النبوية او اثرٍ من آثار الصحابة من جميل كلماتهم وفصيح عباراتهم وبليغ بياناتهم

ومن صفاتهِ انهُ كان قليل الاعتناء بالماكول والملبوس لا يتأنَّق ولا يتزين بشيءٍ مع كمال المواظبة على النظافة . ويقال انهُ كان في نفسهِ امل من محمد احمد الخارج في السودان لكثرة ما سمع من اخبار زهدهِ وانقطاعه وتقواهُ مما افسدهُ عليهِ اخيراً خليفتهُ التعايشي ونحن ننزههُ عن هذه النزعة لما رأينا فيهِ من النباهة . وكان لهُ شعرٌ لا يخلو غالباً عن البلاغة والاتقان ولكنهُ لم يكن يبالي بجمعهِ وحفظهِ . وخلاصة القول انهُ رحمهُ الله كان شيخاً عالماً ودیعاً وقوراً محترماً محبوباً لدى الجميع ممدوحاً بكل لسان صرف عمرهُ في نشر المعارف وتهذيب نفوس الطلبة الى ان توفاهُ الله تعالى في الثالث والعشرين من شهر صفر الفائت امطر الله تعالى على تربتهِ وابل الرحمة وسدل على جدثهِ ستائر المغفرة انهُ قريب مجيب

فكاهات

رواية

الولد الموسيقي [1]

كان في مدينة البندقية من ايطاليا قصرٌ شاهقٌ في بقعةٍ من الارض مكتسية بالعشب الاخضر وفيها حديقةٌ غنآء تحيط بالقصر قد جمعت من اجمل اصناف الازهار وانواع الرياحين وفي وسطها بركةٌ تسبح فيها الاسماك الملوَّنة قد ارتفعت فوقها قبةٌ من الخشب وعلى محيطها مقاعد وثيرة وفي الحديقة تماثيل عديدة من الجبس تمثل اكابر الرجال ومشاهير العلمآء . اما القصر فكان جميل المنظر مبنيًّا على الهندسة الشرقية وهو مزخرف بالنقوش الباهرة والالوان البهية ولم يكن فيه من الاهل سوى شابٍّ في الخامسة والعشرين من عمرهِ قد توفي والداهُ وورث هذا القصر الانيق بارجآئهِ الواسعة عن عمهِ الذي توفي ايضاً غريباً ولم يترك لهُ وارثاً يُعرف سوى ابن اخيه هذا المسمَّى اتيليو . وكان جلُّ ما يعلم اتيليو عن اسرتهِ ان عمَّهُ صاحب القصر سافر بغتةً منذ ثماني سنوات ولم يُسمَع عنهُ شيءٌ بعد ذلك سوى ان جرائد البلدة نشرت خبر وفاتهِ فاستولى والد اتيليو على املاك اخيهِ واصبح وارثهُ الشرعي . ثم مرض الاب ومات وتبعتهُ الام فاصبح اتيليو وحدهُ السائد

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

المطلق التصرف في تلك المملكة الصغيرة وهو في السن التي ذكرناها قبلاً

وكان اتيليو يقضي معظم اوقاته في قصره او الحديقة يطالع الكتب التاريخية وكان شديد الميل الى الموسيقى فبرع فيها الى غاية بعيدة واكبَّ على درسها درساً قانونياً فلم يمضِ عليه طويل زمن حتى اصبح من اساتذتها الممتازين

وفي ذات يوم جلس اتيليو في حديقته تحت ظلال الاشجار واخذ يضرب على الكمنجة الحاناً شجية فاستمرَّ الى ان غربت الشمس ورآها كانما قد اصفرَّت من ألم الفراق فتذكر قصيدة من نظم فكتور هيكو في وداع الشمس كان قد ألَّف لها لحناً شجياً فاندفع يعزف في ذلك اللحن بمنتهى الدقة وشديد التأثر. فلم يأتِ على نهاية الدور الاول حتى سمع شهقةً مرتفعة بالقرب منهُ فانقبضت يدهُ وتوقف ليرى من اين اتى الصوت وأجال نظرهُ في الحديقة واشجارها فلم يرَ احداً . ثم اطلَّ من باب الحديقة الذي بجانبهِ فرأى عند اسفل الجدار ولداً صغيراً لم يكترث بهِ لاول وهلة غير انهُ لما لم يرَ سواهُ اقترب فاذا هو غلامٌ في السابعة من عمرهِ اسود الشعر بهي الطلعة جميل المنظر ولكنهُ رثُّ الثياب لا قُبَّعة على رأسهِ ولا حذآء في قدميه وهو ملتفٌّ بأطمارٍ بالية وقد تأبَّط كمنجةً صغيرة . فسألهُ ماذا تفعل هنا ايها الصغير . فانتصب الولد واجاب بصوتٍ ضعيف انني اكتسب منك الالحان التي كنت تضربها وقد اثر فيَّ اللحن الاخير جدًّا حتى اوشك ان يُغمَى عليَّ وانا ابتهل اليك ان تعيدهُ عليَّ ايضاً مرة واحدة لاتعلمهُ . قال اتيليو وهل لك إلمامٌ بالموسيقى ايها الصغير . قال ليس لي ادنى المام بغيرها اما اسمي فألبرتو لا الصغير . فتبسم اتيليو وقال تعالَ معي اذاً الى داخل القصر لارى

معرفتك في هذا الفن . ثم قاد الولد الى داخل قصرهِ حتى بلغا غرفةً فجلسا وقال اتيليو هات يا البرتو فأَسمعني شيئاً . فاخذ الولد كمنجتهُ وبعد ان اصلح اوتارها اندفع يوقّع عليها بعض الالحان بمهارة لم تكن تنتظر من مثلهِ فأُعجب اتيليو بذكاء الولد ثم امرهُ ان يستعدّ لسماع اللحن الذي طلبهُ فاصاخ الولد بسمعهِ واخذ اتيليو في الضرب فكان الولد ينتفض تارةً ويجمد اخرى بحسب التأثير الذي يوقعهُ عليهِ النغم حتى اذا انتهى اتيليو عمد البرتو فاعاد نفس النغم بتمام الدقة والضبط . فاستغرب اتيليو مثل هذه النباهة منهُ واحبهُ حبّاً شديداً وما زالا يشتغلان بالعزف حتى ظن اتيليو ان الولد ربما يكون قد جاع فامر احد خدمهِ فاحضر لهُ بعض المآكل فلما وقع نظر الولد عليها نهض مسرعاً كمن تذكر شيئاً وقال كلاّ اني لا استطيع ان آكل الآن لان والدتي مريضة ولا بدّ ان تكون في قلق شديد لغيابي فلا بد من الرجوع اليها حالاً لتسكين بالها . قال اتيليو انها الساعة التاسعة الآن وقد هجم الظلام ولا يحسن ان تذهب ايها الصغير وتعرّض نفسك لخطر الليل فابقَ عندي الى الصباح . قال لا فاني لا استطيع ان اترك والدتي في الخطر والقلق الا اذا امكن ان ارسل فاعلمها بمحل وجودي . وادركت اتيليو الشفقة على الغلام وزاد حبهُ لهُ فسألهُ عن محل سكن والدتهِ فاعلمهُ فقال اتيليو اذاً فابقَ هنا وكل واسترح وسأذهب انا بنفسي لاريح افكار والدتك . قال البرتو أتعدني انك تذهب حقيقةً . قال نعم . فتقدم الى مائدة الطعام وشرع يأكل وامر اتيليو بتجهيز عربتهِ وتوجه توّاً الى المحل الذي ارشدهُ اليهِ الغلام وكان في بقعةٍ زريّة من المدينة قد تراكمت في طريقهِ الاقذار وانتشرت

منها الروائح الكريهة حتى همَّ بالرجوع لولا ان تذكر وعدهُ للغلام فتقدم الى ان بلغ غرفةً حقيرةً عند منعطف الطريق ورأى بابها مفتوحاً ينبعث منهُ نورٌ ضعيف فترجَّل من عربتهِ ودخل الغرفة فرأى سريراً على الارض ليس في الغرفة شيءٌ غيرهُ قد انطرحت عليهِ امرأةٌ في غاية الضعف والشقاء فلم تكد تسمع وقع اقدام اتيليو حتى جاهدت ببقية قوتها فرفعت رأسها وقالت هل اتيت يا البرتو . ولما رأت امامها رجلاً أنَّت تحسراً وسقط رأسها على الوسادة . فاقترب اتيليو منها وقال البرتو عندي فكوني مطمئنة البال عليهِ فقد ساقهُ القدر الى بيتي واعجبتني مهارتهُ في الموسيقى فأخرتهُ عندي الى الآن وخفت ان يضطرب بالكِ عليهِ فجئت بنفسي لاطمئنكِ . والآن فاذ قد رأيت ما انتِ فيهِ من الفاقة الشديدة فهل تسمحين لي بالولد ليبقى عندي فاعاملهُ كولدٍ لي . وكانت الوالدة المسكينة تعي كلام اتيليو وهي في اضطراب شديد ففتحت فاها وقالت بصوت لا يكاد يُسمع ان الله قد ارسل ابني اليك لتعتني بهِ فاتوسل اليك ان تحافظ عليهِ والله يجزيك عني خيراً . اما انا فقد اقتربت ساعتي الاخيرة وكنت اودُّ ان اقبّل البرتو قبلة الوداع فما اتعس حياتي . ثم اخرجت من تحت وسادتها رزمةً من الاوراق ودفعتها الى اتيليو قائلةً خذ هذه فاذا بلغ ولدي سن الرشد فادفعها اليهِ ليعلم منها تاريخ حياتهِ لكن هل تمنُّ عليَّ بتعريفي اسم الذي سأترك ولدي لعنايتهِ . قال اتيليو دي ماركو . فاختلجت جثة الوالدة وسقطت ثانيةً على السرير واقترب اتيليو اليها فاذا هي قد فارقت الحياة فتأثر شديداً لهذا المشهد ثم رجع بعربتهِ الى البيت وارسل من خدمهِ من يعتني بدفنها . وسأل عن

الغلام فوجدهُ نائماً براحةٍ فطرح رزمة الاوراق في احدى خزائنهِ وذهب الى رقادهِ مفكراً في ما عساهُ ان يعقب ذلك الاتفاق

ولما كان الصباح التالي امر اتيليو فألبسوا البرتو ثوباً جديداً ثم احضرهُ اليهِ فاخبرهُ انهُ سيجعلهُ كابنهِ ويبقيهِ عندهُ . فقال الولد وهل ترضى والدتي بذلك . قال نعم وهي التي سألتني ان اعتني بك لانها سافرت الى بلادٍ اخرى . فلم يظهر البرتو ادنى قلقٍ لهذا الخبر وابتدأ يدور في غرف القصر يسرح النظر في الصور البديعة والمحتويات الثمينة وكان اذا جاء المسآء يدعوهُ اتيليو ويعلمهُ الحاناً جديدة فكان البرتو في نعيمٍ وسرورٍ مستمرّ

وبعد مضي سنةٍ من ذلك التاريخ ارسل اتيليو البرتو الى المدرسة ليتلقى العلوم فأحرز منها حظاً وافياً وعاد بعد مدةٍ على احسن ما يرام وكان اتيليو لا يلذ لهُ سوى محادثة البرتو واستصحابهِ وعلى الخصوص في الحفلات الموسيقية

وكان البرتو بعد رجوعهِ من المدرسة قد استكمل رشدهُ فكان يتذكر ماضي حياته اذ كان عند والدتهِ المسكينة لا يملأ جوفهُ من كِسَر الخبز وكانت تمثل لهُ تلك الوالدة المريضة وهي ملقاة على سرير الاوجاع تئن وتستغيث ولا مجير وكيف خرج من بيتهِ واوصلهُ القدر الى بيت اتيليو الذي انعطف عليهِ كأبٍ شفيق وربَّاهُ وانفق على تهذيبهِ ومعيشتهِ . وكان قد اعلمهُ اتيليو بوفاة والدتهِ فحزن عليها حزناً شديداً غير انهُ رأى في انعطاف اتيليو وحنانهِ ما انساهُ فقد والدتهِ وتجدد شعورهُ بجميل اتيليو وما لهُ عليهِ من الفضل

وكان بالقرب من قصر اتيليو قصرٌ آخر لرجلٍ من اغنيآء الطليان يقال

لهُ الكونت دي مونتفيوري وكان لهُ ابنةٌ بارعة الجمال كاملة الاوصاف في الرابعة عشرة من عمرها تدعى مرغريتا . وكانت مرغريتا مولعة منذ حداثتها بحديقة قصر اتيليو فكانت تأتيها كل يوم فتقضي نهارها عند اقفاص الطيور او بجانب البركة ترمي فتات الخبز للاسماك او تدخل احياناً القصر وتسرح الطرف في رياشهِ الثمين وتماثيلهِ البيضاء وصورهِ الجميلة . وكانت اذا دخلت غرفة اتيليو ورأتهُ يعزف على بعض آلات الطرب تجلس بالقرب منهُ مصغيةً اليهِ فيسر بمنظرها ثم ينهض فيحضر لها بعض الحلويات او الالعاب التي تزيدها حباً لهُ وتحبب اليها العود الدائم الى القصر . ولما بلغت سن المدرسة انقطعت عن زيارة القصر مدة ثماني سنوات ولما عادت وقد برز صدرها واعتدل قوامها رآها اتيليو فاعجبهُ جمالها وزاد حبهُ لها فكان يكثر من زيارتهِ لوالديها ويلح عليهما بالمجيء الى قصرهِ يومياً . ولم تكن مرغريت تحتاج الى مثل هذه الدعوة وهي لا تجد لذةً الا في القصر او الحديقة فكانت تأتي كل يوم وتصحب معها شغلها او كتبها . وكان رجوعها من مدرستها قبل رجوع البرتو بقليل فلما عاد ووجد هذا الملك الجديد حار في امرهِ وسأل عنها الخدم فاعلموهُ بامرها ولما جاء اتيليو عرَّف البرتو بمرغريت فجلس بقربها يلاطفها ويحادثها . وكان اتيليو قد عزم على استمالة قلب مرغريت والاقتران بها وكانت هي تودّ ذلك غير انها لما ابصرت البرتو تغيرت افكارها وانقلبت محبتها اليهِ . ولم يخطر في بال اتيليو ان البرتو سيزاحمهُ عليها فلم يسعَ في قطع العلائق بينهما وعقد العزم على الاقتران بمرغريت في وقتٍ قريب . غير ان اجتماعات البرتو بها وان كانت احدث عهداً فان

تأثيرها كان اعظم وتعلق القلبان بعضهما ببعض تعلقاً شديداً حتى لم يعد في وسعهما الكتمان فتكاشفا امر الحبّ وقصت مرغريت على البرتو هيام اتيليو بها وحبهُ الشديد لها ورغبتهُ في التزوج منها غير انها هي لا تهواهُ وتؤثر ان تكون زوجةً لالبرتو

فلما سمع البرتو ذلك اختصر المقابلة ما امكن وعاد الى غرفتهِ في يأسٍ عظيم وقلقٍ زائد وعسر عليهِ ان يكافئ فضل اتيليو بان يزاحمهُ على اعظم منيةٍ عندهُ ويكون سبباً في تنغيص حياتهِ وعزم على ان يخمد نيران هذا الحب ولو كان في ذلك بذل حياتهِ ولا يقدم على هذه الفعلة الآئلة الى تكدير صفآء مربيهِ . وذلك فضلاً عما هو فيهِ من خلوّ ذات اليد بحيث لو اقدم على التزوج من مرغريت وذلك لا بدّ ان يسوء اتيليو لم يأمن ان يطردهُ من بيتهِ . وكانت تلك الليلة من اصعب الليالي على البرتو فلم يغمض لهُ جفن وهو يتقاب في اودية الافكار بين ان يطيع هواهُ ويتعرض للخيانة والذلّ او يقوم بما تفرضهُ المروءة والوفآء ويُحرَم زهرة حبهِ الاولى

اما اتيليو فذهب في المسآء الى بيت مرغريت واجتمع بها وصرّح لها بعزمهِ على الاقتران بها عن قريب وسألها الموافقة على ذلك فرفضت مرغريت طلبهُ وقالت انني احبك يا اتيليو كوالدي واما زوجي فلا يكون سوى البرتو الذي اتفقت واياهُ على الحب ووعدني الاقتران بي . فصاح اتيليو وهل وعدك البرتو بذلك . قالت نعم . فقال يا لهُ من خائن جاحد للجميل ثم خرج من البيت لا يلوي على شيء فدخل غرفتهُ تتجاذبهُ الافكار ويتأمل في تربيتهِ لالبرتو نادماً على ما فعل . ثم صمم على ان يقابل البرتو فاذا أصرَّ

على مناظرتهِ في الحب طردهُ من بيتهِ فقيراً حقيراً كما دخل اليهِ . ولما اصبح توجه الى غرفة البرتو فدخلها بغضبٍ شديد ولكنهُ حالما دخل وقف مبهوتاً لانهُ رأى الغرفة خالية من البرتو وسريرهُ لم يزل مرتباً مما يدل على انهُ لم ينم تلك الليلة هناك . وحانت منهُ التفاتة الى المائدة فرأى عليها رسالةً باسمهِ فاسرع الى فض الرسالة فاذا فيها ما يأتي

سيدي وملاذي اتيليو

اني لولا نعمتك ما حييت الى الآن فكل نقطةٍ من دمي انما تجري بفضل احسانك فانت وليُّ نعمتي وانت المتفضل عليَّ بالحياة

ان الانسان لا يعيش بدون قلب والقلب لا يعيش ان لم يحبّ فقد رأيت مرغريت واحببتها واحبتني مدفوعاً الى ذلك بعواطف النفس التي تغمض الجفون وتحجب النظر فلا يرى المحب سوى الوهدة التي سيسقط فيها . اما انا فقسماً بتربة والدتي انني كنت اجهل تمام الجهل محبتك لها حتى اعلمتني هي بذلك منذ بضع ساعات ويا ليتني مت قبل هذا النبأ الشديد او قبل ان تولدت في احشائي جراثيم الحب . ولكن لا فان في عروقي دماً وان في وجهي قطراتٍ من ماء الحياء فلن اكافئك بهذا الجزاء ولكني قد صممت على ان اغادر هذه الناحية فلا تسعَ في البحث عني فاني لن أُوجد ولتهنأ بمرغريت التي ستكون لك بعد ذهابي فعش معها بالسعادة والمسرَّة

انك قد ربيتني فانت اعلم الناس بما اضمرهُ وما طُبعت عليهِ فلا حاجة الى كتابة اكثر من هذا ولا سيما ان قلبي المتقطع يستوقف يدي والسلام عليك من اسير فضلك البرتو

وكان اتيليو يقرأ وهو بين ارتعاش وهدوء وغيظٍ وسرور حتى اذا انتهى من القراءَة وقف يتأمل طويلاً وهو يعجب من كرم طباع البرتو وطيب فطرتهِ وما تحلى بهِ من كمال المروءة والشرف . وفي تلك الساعة خطر في بالهِ لاول مرة رزمة الاوراق التي سلمتها اليهِ والدة البرتو فاسرع الى مكتبتهِ واخذها منها ثم فضها وقرأها وبعد بضع دقائق دعا اتيليو جميع خدم قصرهِ وامرهم بالتفتيش عن البرتو واحضارهِ فتفرقوا في طلبهِ ولم يمضِ على ذلك الا حينٌ قصير حتى عاد وكيل القصر وبصحبتهِ البرتو وكان قد وجدهُ بالقرب من قصر مرغريت حيث عزم ان يتزود آخر نظرةٍ من جمالها قبل الرحيل

ولما عاد ادخلهُ اتيليو الى غرفتهِ ولما جلسا قال لهُ ما الذي يحملك على ان تهاجر البلاد يا البرتو . قال اني لم اكن اعلم انك تحب مرغريت فلما وضح لي الامر لم اشأ ان اكون عقبةً في سبيل حبك واكافئك على ما صنعت اليَّ من الخير بالشرّ فرأيت ان رحيلي يكون خيراً . قال اليس لكلٍ منا قلبٌ فلك ان تحبّ كما لي ان احبّ وبعدُ فانها هي أَميل اليك مني . قال وهب ان الامر كذلك فمن اين لي المال الذي يمكنني من الاقتران بها افلا تكون انت اولى بذلك مني . فقال اتيليو بل الامر بالعكس فانا ليس لي من المال درهمٌ واحد وانما المال كلهُ لك . أفتدري ابن من انت وما كان اسم ابيك . قال اسم والدتي المتوفاة لوسيل واما والدي فلا اعرفهُ ولم اهتمّ بالبحث عن اسمهِ لأَني قد رُزقتك اباً لي وانا أُدعى باسمك . فقال اتيليو وقد طفحت عيناهُ بالدموع ان والدك اسمهُ الكونت سزار دي ماركو وهو عمّي واخو ابي وقد كان الكونت دي ماركو احب فتاةً فقيرة من بنات

الملاهي واقترن بها اقتراناً شرعياً غير انهُ خشي من اهلهِ ان يسقطوهُ من شرفهِ لهذا الامر فسافر عنهم بغتةً ولم يُعلم عنهُ بعد ذلك شيءٌ . ولما تقرر خبر وفاتهِ سلَّمت الحكومة املاكهُ الى ابي ثم بعد وفاة والديَّ استوليت انا عليها وبقيت والدتك المسكينة في الحالة التي عرفتها من الفقر لانها لم تجد سبيلاً للمطالبة بحقوقها وقد اعتنت بك مدة سبع سنوات الى ان اتيت اليَّ وكان ما كان . وكانت لما ذهبتُ اليها يوم وصولك اليَّ قد سلمتني رزمة اوراقٍ تتضمن تاريخ وجودك لم يخطر لي النظر اليها الا اليوم ومن مطالعتها علمت ما اخبرتك اياهُ فانت يا البرتو ابن عمي وانت صاحب هذا القصر واملاكهِ الفسيحة لا انا فهل تقبلني في ضيافتك . وكان البرتو يدقق في فحص الاوراق وهو دامع الجفن ضيق الصدر فوثب على عنق ابن عمهِ يقبلهُ وتعانق الاثنان ملياً . ثم قال اتيليو اما الآن وقد اصبحتَ مثرياً فلا بدّ من اقترانك بمرغريت لانها هي قالت لي انكما تعاهدتما على الزواج وفضلاً عن ذلك فانها لا تحبني كما ذكرت لك فلم يبقَ وجهٌ لطالبي الاقتران بها وقد طبتُ نفساً لك عنها وانا اسأل الله لكما قراناً مباركاً وعيشاً سعيداً . واما انا فسأجتهد ان اسلوها الى ان يوفقني الله الى غيرها. قال البرتو قد رضيت بذلك لكن بشرطٍ واحد لا بد من اتمامهِ وهو ان تبقى انت في القصر يُعرف باسمك فتكون لنا اباً ونكون لك ابنين . فنهض اتيليو ثانيةً وعانق البرتو ثم اقترن البرتو بمرغريت ولم يزل اتيليو معهما اباً ومرشداً ومدبراً لاشغالهما وقضوا ما شاءَ الله من الدهر وهم على تمام السعادة والسرور